تعقيب موجز

الدكتور شاكر الفحام

في كتب الرحالة وأصحاب المسالك والممالك والجغرافيين العرب أطرافٌ من أخبار بلاد التُّبَّت وصفة موقعها وأراضيها ونتاجها . ولَمَعٌ يتشقَّقُ إليها الحديثُ تتصل بطباع أهليها وسكانها وأصولهم وتاريخهم وملوكهم ومنتى لغتهم ، وما قام بينهم وبين جيرانهم من علائق المودة والإخاء ، أو ما شجر بينهم من جاحم الحروب والعداء . ولم تَعْرَ كتبُ التاريخ والأدب والمحاضرات والحيوان والنبات وأمثالها من ذكر بلاد التبت والتعرض لخواصها في هوائها ومائها وسهلها وجبلها ، وتعداد عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وأنهارها ، مما لا يخلو من فائدة أو طرفة أو حقيقة تكشف مجهولا وتنير طريقا . ولعل باحثا ذا همة ينهض بجمع ماتشتت في بطون الكتب ، ولَمِّ ما تناثر من أخبار هذا الإقليم وأخبار سواه من الأقاليم ، يضمُّها بين دفتي كتاب مؤلف ، أو يشير الى مواضعها في دليل مُرْشد ، فيقدم للناشئة العربية وللعلماء ذخيرة سنيَّة يثلون اليها ليجدوا فيها بغيتهم على أهون سبيل وأيسر طريق ، قد كُفوا مؤونة التنقير والتنقيب ، وأصبحت النصوص والمادة الأساسية منهم على طرف الثُّمام .

أما الكلمة التي حبّرها الأستاذ صبحي البحصام بعنوان (تحقيق لفظ تُبَّت) فقد قصرها على تناول ما جاء بشأن ضبط هذه اللفظة في كتب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اللغة ومعجماتها ، وما يستتبع ذلك من ذكر شواهد تعزز الرأي الذي ذهب اليه وتؤكده ، أو من تفسير يقود الى حادثة تداولتها كتب التاريخ ، ولم يمض في كلمته الى أبعد من هذه الحدود . لقد سعدتُ بقراءة الكلمة ، وكان أن ذكرتني بطائفة من النصوص اللغوية مرت بي في أثناء مطالعاتي ، فرأيت أن أعرضها هنا لتكون ضميمةً الى ماجاء به الأستاذ الفاضل البصّام . ولم أسلك في سردها سبيل الاستقصاء والتتبع فتلك سبيلٌ تحتاج الى تفرغ ونشاط ، وهما مني مناط الثريا ، وانما تناولتُ من هذه النصوص ما دنا وقرب . ووقفتُ عند الجانب اللغوي لا أجاوزه الى سواه من نقول ، إلا فيما لابدَّ منه مما يتطلبه فهمُ النصّ اللغوي . عسى أن تكون كلمة الأستاذ البصام وتعقيبي الموجز حافزاً ومحرضاً لناشىءٍ باحثٍ قد أُوتي القوة والجَلَد ، ورُزق الصبر والدأب وحب العلم والتفاني في سبيله ، ليمضيَ في جمع أشتات هذه النصوص الموزعة في كتب اللغة ومعجماتها .

ـ إن استعراض هذه النصوص يوحي لقارئها أول مايوحي أن كلمة التُّبَّت ترِدُ بمعنى الإقليم تارة ، وبمعنى سكان هذا الاقليم تارة أخرى . وتلك سبيلٌ سلكها العرب على قلة في جملة من أسماء البقاع ، يطلقون على السكان اسم الإقليم والبلد ، وقد نبّه اليها العلماء . تحدث ياقوت الحموي عن مدينة كابل (معجم البلدان ـ كابل) ثم أتى بشواهد من الشعر على عادته ، وقدّم لشاهد منها فقال : « وقال الأعشى ، وسمّى أهل كابُل كابُلاً :

ولقد شربتُ الخمر تَرْ كضٌ حولنا تُرْكٌ وكابُلْ »

واليك ماعنَّ بالبال وسمح به الخاطر من نصوصٍ لغوية تناولت لفظ (تُبَّت) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

١ ـ جاء في كتاب العين المنسوب للخليل بن أحمد الفراهيدي (ط بغداد ١٩٨١) ٢ : ٧٩ « تُبَّع : اسم ملك من ملوك اليمن ، وكان مؤمنا . ويقال : تُبَّت ، اشتُقَّ لهم هذا الاسم من تُبَّع ، ولكن فيه عجمة . ويقال : هم من اليمن ، وهم وضائعُ تُبَّع بتلك البلاد » .

٢ ـ وقال المسعودي في مروج الذهب (بيروت ١٩٦٥ م) ١ : ١٨٦ ـ ١٨٨ « وبلادُ التُبّتِ مملكة متميزة من بلاد الصين ، والغالب عليهم حِمْيَرُ ، رتّبهم بعضُ التبابعة .... وهذا البلد سَمّي بمن ثُبِّتَ فيه ورُتِّب به من رجال حِمْيَر فقيل : ثُبَّت ، لثبوتهم فيه ، وقيل : لمعانٍ غير ذلك ، والأشهر ماوصفنا . وقد افتخر دعبل بن عليّ الخزاعيّ بذلك في قصيدته التي يناقض فيها الكميت ، ويفخر بقحطان على نزار فقال :

وهم كتبوا الكتاب بباب مروٍ وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم سَمّوْا سَمَرقندا بشمر وهم غرسوا هناك التُبَّتِينا

.... وبلادُ التُبَّتِ متاخمةٌ لبلاد الصين وأرضها من احدى جهاتها .... وقد كانوا في قديم الزمان يسمُّون ملوكهم تُبَّعاً اتباعاً لاسم تُبَّع ملك اليمن ، ثم إن الدهر ضرب ضرَبانَه ، فتغيرت لغاتهم عن الحِمْيَرية وحالت الى لغات تلك البلاد بمن جاورهم من الأمم ، حتى قد سمَّوا ملوكهم بخاقان .... » .

٣ ـ وقال الأزهريُّ في التهذيب (ط القاهرة) ٢ : ٢٨٤ : « قلتُ : وأما تُبَّعٌ الملكُ الذي ذكره الله في كتابه فقال : (وقومُ تُبَّعٍ كلٌّ كذَّبَ الرسلَ) [سورة ق ، آية ١٤] ، فقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال : ما أدري أتُبَّعٌ كان لعيناً أم لا . وقال الليث [في كتاب العين] : كان تُبَّعٌ ملكاً من الملوك ، وكان مؤمناً . وكان فيهم تبابعة . قال [الليث] :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويقال : إن تُبَّت اشتُقَّ لهم هذا الاسم من تُبَّع ولكن فيه عجمة ولَكُنة ، ويقال : هم اليوم من وضائع تُبَّع بتلك البلاد » .

٤ ـ وقال نشوانُ بن سعيد الحميري في شمس العلوم ١ : ٢١٤ (باب التاء والباء وما بعدهما) : « الزيادة : فُعَّل ، بضم الفاء وفتح العين مشدّدة . (ت) التُّبَّتُ : اسم بلادٍ يُجْلب منها المسكُ ، وهي دون الصين ، فيها قومٌ من قبائل اليمن ، زيُّهم زيُّ العرب ، ولهم ملكٌ منهم قائم بنفسه . يقال : إن الذي نقلهم الى هنالك الملك شمر يرعش بن أبرهة ذي المنار ، له ولهم حديث . ويقال : نقلهم ابنُ ابنه تبّع الأكبر بن تبع الأقرن بن شمر يرعش . قال دعبل بن عليّ الخزاعي في قصيدته الدامغة في ملوك حمير :

وهم كتبوا الكتابَ بباب مرو وهم غربوا هناك التُّبَّتينا »

٥ ـ وجاء في معجم البلدان لياقوت الحموي (تبت) : « تبت ، بالضم (أي بضم أوله) ، وكان الزمخشريُّ يقوله بكسر ثانيه ، وبعضٌ يقوله بفتح ثانيه ، ورواه أبو بكر محمد بن موسى [الحازمي ، له كتاب مااختلف وائتلف من أسماء البقاع] بفتح أوله وضمّ ثانيه . [والباء] مشدّد في الروايات كلها . وهو بلد بأرض الترك .... وانما سُمّيت تُبَّت بمن تُبِّتَ فيه ورُتِّب من رجال حِمْيَر ، ثم بُدِّلت الثاءُ تاءً ، لأن الثاء ليست في لغة العجم . وكان من حديث ذلك أن تُبَّعاً الأقرن سار من اليمن .... حتى أتى بلاداً واسعة كثيرة المياه والكلأ ، فابتنى هناك مدينة عظيمة وأسكن فيها ثلاثين الفاً من أصحابه ممن لم يستطع السير معه الى الصين وسماها تُبَّت . وقد افتخر دعبل بن علي الخزاعي بذلك في قصيدته التي عارض بها الكميت فقال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهم كتبوا الكتاب ببابِ مَرْوٍ وبـاب الصين كانوا الكاتبينـا
وهم سمّوْا سمرقنـداً قـديماً وهم غرسوا هنـاك التُّبَّينـا

وأهلُها ، فيما زعم بعضُهم ، على زيّ العرب الى هذه الغاية . ولهم فروسيةٌ وبأسٌ شديدٌ ... وكانوا قديماً يسمُّون كل من ملك عليهم تُبّعاً ، اقتداءً بأولهم ، ثم ضرب الدهرُ ضَرْبَه فتغيرت هيئتُهم وانتهم الى ما يجاورهم من الترك ، فسمّوا ملوكهم بخاقان .... ، ولتُبَّت مـدنٌ كثيرة ، وينسبون مِسْكَ كل مدينة اليها .... »

٦ ـ وقال الصغاني في التكملة والذيل والصلة (تبت) : « وتُبَّت ، بضمتين ، والباء مشدَّدة : أرضٌ ينسب اليها المسكُ الذكيّ » .

٧ ـ وجاء ابن منظور صاحب لسان العرب (وكتابه انما هو جمع وتأليف لخمسة كتب من أمهات كتب اللغة هي التهذيب للأزهري والصحاح للجوهري والمحكم لابن سيده وحواشي ابن بري على الصحاح والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير) فنقل عبارة الأزهري في التهذيب قال (اللسان ـ تبع) : « قال الأزهري : وأما تُبَّعٌ الملك الذي ذكره الله عزَّ وجل في كتابه فقال : (وقومُ تُبَّعٍ كلٌّ كذَّب الرسل) [سورة ق ، آية ١٤] فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال : ما أدري أتُبَّعٌ كان لعيناً أم لا . قال [الأزهري قال الليث] ويقال : إن تُبَّت اشتُقَّ لهم هذا الاسم من اسم تُبَّع ، ولكن فيه عُجْمة ، ويقال : هم اليوم من وضائع تُبَّع بتلك البلاد » .

٨ ـ وقال الحميري في الروض المعطار : ١٣٠ ـ ١٣١ (تبت) : « تُبَّت : في بلاد الترك ، وهي مملكة متميزة من بلاد الصين ، والغالب عليهم حِمْيَر ، رتَّبهم بعضُ التبابعة .... والمشهور أنه تُبَّت ، بالتاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المثناة . وقال المسعودي [في مروج الذهب] : سُمِيّ هذا البلد بمن تُبِّت فيه ورُتِّب له من رجال حِمْيَر فقيل : تُبَّت (أي بالثاء المثلثة في أوله) لثبوتهم . وقد افتخر دعبل بن علي الخزاعي بذلك في قصيدته التي يناقض فيها الكميت ويفخر بقحطان على نزار :

وهم كتبوا الكتاب بباب مرو ... وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم سمّوا سمرقنداً بشمر ... وهم غرسوا هناك التُّبَّتينا

وبلاد التبت متاخمة لبلاد الصين وأرضها من احدى جهاتها . ولأرض الهند وخراسان ومفاوز الترك .... وكانوا في قديم الزمان يسمُّون ملوكهم تُبَّعاً بتُبَّع ملك اليمن ، ثم ان لغاتهم تغيرت عن الحِمْيَرية وحالت الى لغة تلك البلاد بمن جاورهم من الأمم .... » .

٩ ـ وقال الفيروزابادي في القاموس المحيط (تبت) : « تُبَّت ، كسُكَّر : بلادٌ بالمشرق ، ينسب اليها المسكُ الأذفر » .

١٠ ـ وقال مرتضى الزَّبيديّ في التاج (تبت) : « تُبَّت ، كسُكَّر ، هكذا ضبطه غير واحد ، وكان الزمخشريُّ يقول بالكسر (اي بضم أوله وكسر ثانيه) ، ورُوِيَ بفتح أوله وكسر ثانيه ، [وباؤه] مشدّد في الجميع ، نقله شيخنا . وقد أهمله الجوهري .... وذكر صاحب اللسان في تركيب ت ب ع أن تُبَّت اشتق لهم هذا الاسم من اسم تُبَّع ، ولكن فيه عجمة ، ويقال : هم اليوم من وضائع تُبَّع بتلك البلاد . يُنسب اليها المسك الأذفر وهو أفضل من الصينيّ لخاصية مراعيها .... » .

١١ ـ بيتا ظهير الدين البارزي اللذان أوردهما الأستاذ البصّام واستدهما من فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ، قد جاءا ايضاً في الوافي بالوفيات للصفدي (٦ : ١٨٠) ، وجاءت رواية البيت الثاني فيه :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هـل أنت فـوق خـدّه الـ وردِيِّ مِسْـكٌ تنبتي ؟

ثم علّق الصفدي على البيت بقوله : « قلتُ : كان الأصل أن يقول : تنبتين ، ولكنه حذف النون على لغة من قال :

أبيتُ أسْري وتبيتي تـدلكي
وجهـك بـالعنبر والمِسْـك الـذكي

والصحيح ان الأرض التي ينسب اليها المسك يقال لها : ارض التبت ، وهي بلاد الترك التي بها غزال المسك ، ليس فيها نون البتة ، وانما هي بتاءين ثالث الحروف ، الأولى مضمومة ، وبينهما باء ثاني الحروف مفتوحة ، على وزن عُمَر » . وضبطُ الصفدي : تبت ، على وزن عمر ، ضبطٌ يحتمله وزن البيت ، فهو من مجزوء الرجز ، دخل ضربَه الطيُّ (وهو حذف الرابع الساكن من الجزء) .

١٢ ـ وأما قول دعبل الخزاعيّ الذي رواه الأستاذ البصّام :

وهم كتبوا الكتـاب بباب مروٍ وهم غرسـوا هنـاك التُّتينـا

فهذه روايته في الاكليل (٨ : ٢٠٩) وشمس العلوم (١ : ٢١٤) وخلاصة السيرة الجامعة : ٩٠ ، وهو ملفق من بيتين في رواية المسعودي (مروج الذهب ١ : ١٨٨) ، وياقوت الحموي (معجم البلدان ـ تبت ، سمرقند) ، والحميري (الروض المعطار ـ تبت) . وانظر شعر دعبل بن عليّ الخزاعي صنعة الدكتور عبد الكريم الأشتر (دمشق ـ مجمع اللغة العربية بدمشق) : ١٩٣ ، ١٩٥ .

شاكر الفحام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net